Received : 23 / 4 / 2025 Accepted : 29 / 6 / 2025 Published : 12 / 4 / 2026

الأبعاد الرمزية في رواية دفوف رابعة العدوية

أ.د. رباب هاشم حسين

rababhashim2017@gmail.com

الجامعة المستنصرية, كلية التربية, قسم اللغة العربية

الملخص

لقد وضعتنا رواية دفوف رابعة العدوية للروائي عبدالستار البيضاني في مساحة متوترة، وبؤرة تتصارع فيها الثنائيات المتضادة: (الجسد والروح، الواقع والمثال، السياسة والجور، الحقيقة والزيف، الإيثار والأنانية)، وغيرها من الثنائيات التي جسدت، في مناخها، متناقضات الحياة، والتي تداعت برموز محمّلة بثيمة الرواية الحقيقية التي أراد السارد إيصالها، بزج هذه الحكاية الصوفية من قصة العشق الغريبة والساخنة بين بطل الرواية والفتاة الجميلة "قبس" أو "عازفة السطور"، والتي تماهت وتعالقت مع الواقع التاريخي والحقبة المُضنية التي شهدها العراق في فترة الحصار الاقتصادي وإفرازاته العصيبة، والتوغّل في واقع التسعينيات وأزماته وتمثيلاته على المستويين الاقتصادي والإنساني.

الكلمات المفتاحية : دفوف رابعة العدوية ، الرمز الصوفي ، عبدالستار البيضاني

Symbolic Dimensions In The Novel "Drums of Rabia Al-Adawiya

Prof. Dr. Rabab Hashim Hussein
Al-Mustansiriya University, College of Education, Department of Arabic Language

Abstract

The novel Dawf Rabaa'a Al-Adawi by the novelist Abdul Sattar Al-Baydani put us in a tense space, and a focus in which the opposite duos struggle: (body and soul, reality and example, politics and injustice, truth and falsity, altruism and selfishness), and other duos that embodied, in their climate, the contradictions of life, which were falled with symbols loaded with the true of the true novel that the narrator wanted to convey, by illgging this mystical tale from the strange and hot love story between the protagonist of the novel and the beautiful girl "Qabas" or "the line player", who sewitated and related to the historical reality and the strenuous era that Iraq witnessed during the period of economic siege and its stressful.

Keywords: Dafouf Rabaa Al-Adawiya, the Sufi symbol, Abdulstar Al-Baydani

مدخل:

بداً يمكننا القول باستحالة وجود فن لا نلمس بعضًا من ذات مبدعه، والبيضاني واحد من الروائيين والقصاصين تلمس هموم المجتمع عبر رواياته وقصصه، فقد عالج قضايا ذات أبعاد رمزية تسجيلية، التقطت صور الواقع المتناقض وازدواجية عقول أبنائه، والكشف عن بواطن الواقع وتعريته على كل مستوياته الثقافية، ولا سيما وأن الأدب بعامة خبرة ثقافية توجه إنتاج القيم والمعاني، وليس مرآة تحاكي واقع الحياة، ولا سيما في الإبداع الروائي، الذي يعد من أكثر الأنشطة الإنسانية فاعلية في مجمل حياة الفرد والمجتمع بصورة عامة (الخياط، 1975). ولقد جسدت دفوف رابعة العدوية الرمز بكل تفاصيله المتداولة، وباختلاف المسببات الفكرية والموضوعية لتوظيفه، فالذات المبدعة هي التي تبتدع تشكيلات لغوية متنوعة للتعبير عن همومها وهموم مجتمعها، كما أنها تبتدع رموزًا خاصة يمكن أن نعدّها شخصية، لأنها تستجيب لحمولة دلالية خاصة بالسارد أو بالذات الساردة، وفق الرؤية الإبداعية له, ومن حقه أن يجعل من الرمز العام رمزًا ذا حمولة شخصية، فضلًا عن حمولته العامة. والبيضاني، بقدرته المتفردة، استطاع أن يخلق رموزه الخاصة، ويستثمر أي مظهر كوني بما يمتلك من طاقة إبداعية لتوظيف هذا المظهر، فهو الفتى الجنوبي المأخوذ حتى النخاع

 DOI: https://doi.org/10.47831/m7dgym15

بالهواجس الفكرية والجمالية والوجدانية المرتبطة بوطنه، فكانت ذاته المحور الذي أسّس جيل الحياة والكون كله في بلاده، ولا سيما في هذه الرواية، فكان الرمز الأرض الخصبة التي يزرع فيها أفكاره ورؤاه. لقد سجلت الرواية الواقع بكل تناقضاته وخفاياه، والغوص في عوالمه الخفية والظاهرة، وتجسيد لما مر به العراق من حروب وحصار، ولا سيما في العقد الثمانيني وبداية العقد التسعيني حتى الآن فهي رواية مستلة من عمق الواقع، بفنية وبوح ممتد من السطور الأولى حتى مشهد الختام، بمسحة رمزية إيحائية. فمنذ العنوان، تطل علينا قصة وسيرة الصوفية المعروفة (رابعة العدوية)، وهو تخمين إشاري رمزي لإنتاج الرؤية والمعاني والأفكار المشتركة بين سيرة (رابعة العدوية) وسيرة "قبس" إذ اتخذت الرواية من قصة العشق الغريبة والساخنة بين بطل الرواية والفتاة الجميلة "قبس"، عازفة السطور، وفي الوقت ذاته، تتماهى هذه القصة وأحداثها وتتناقض مع الواقع التاريخي، والحقيقة المعتمة التي شهدها العراق، وهي حقيقة الحصار الاقتصادي البغيض وإفرازاته العصيبة. ولعل زجّ هذه الحكاية الوجدانية (قبس – عازفة السطور) بصيغة العشق الصوفي، وتوظيف الرموز بأسلوب الإيحاء، بعيدًا عن الأسلوب المباشر، وتمكّن عبد الستار البيضاني من اللغة وأدواتها، ولا سيما في توظيف الرمز الصوفي لتجسيد المرأة وتناقضها، المتجسدة في توظيف "رابعة العدوية"، ومن مخزونها الرمزي المتباعد في الزمان والمكان. وهذا ما سوف تكشفه الدراسة عبر توظيف الرمز التاريخي والاجتماعي.

أولاً : الرمز التاريخي

يعد التاريخ وأبعاده المتجسدة في هذه الرواية أقرب المؤثرات التي أبدعت في تشكيل لغة رمزية تستجيب لحمولة دلالية قادرة على التعبير عن قوانين الحاضر، والتي هي تحفة تاريخية في التعبير عن الغائب والغريب في الماضي التاريخي الموثق في الذاكرة. فقد أطل التاريخ منذ الصفحة الأولى من الرواية باستهلال تشويقي: "كل شيء جرى في غفلة مني! مثل حادث مفاجئ لا تشعر بوجع إصابته إلا بعد مرور زمن على وقوعه! هل أن ما جرى يصنف تحت عنوان حادث؟! لا أريد أن أشغل أحدًا معي في البحث عن الإجابة، فلدي الكثير من الأسئلة التي تحتاج أن أحسم إجابتها بالمزيد من التأمل والتفسير؛ تفسير ما أنا فيه قبل أية محاولة للحصول على إجابة، ومن ثم مساعدتي في الخروج من معتقلي...قلت لا أريد أن أشغل أحدًا، لكني لا أعفي نفسي من هذا الانشغال بالتفسير، تحديدًا من أجل تحرير نفسي، فأنا باختصار شديد: معتقل في رأس امرأة" (البيضاني، 2022), فقد أطلت رمزية التاريخ المرتبط بذات الراوي التائهة في ملكوت الواقع العراقي المأزوم في الماضي والحاضر: "أنا إنسان لا تعنيني العنوانات ولا الأسماء بقدر ما يهمني أن أعيش بسلام مع الحالة التي تعطي معنًى لحياتي، التي خسرت أكثر من نصفها في الحروب، والحصارات، والخوف، والمطاردات" (البيضاني، 2022), فمنذ العنوان يطل التاريخ بأبعاده الرمزية الأدبية، متجسدًا بالعنوان الذي حصر ذهن المتلقي للوهلة الأولى إلى مناخ العشق والتعلّق الصوفي، الذي اتخذته الرواية إطارًا عامًا وليس متنًا لهذه الرواية، التي كانت بوتقة صهَر فيها الروائي معاناة شعب بأكمله، في ظل الحروب المتتالية التي شهدها العراق، والحصار الاقتصادي الذي أنهك كاهل الإنسان، لتكشف الرواية عن واقع مأزوم ومتردٍ في مستوياته الإنسانية والاقتصادية، ولا سيما في العقد التسعيني العراقي. إذ اعتمد البيضاني على: "المزاوجة بين الذاكرة التوثيقية والحقيقة الروائية، عبر فعلي الإيهام والتخيل السردي، وذلك بالاتكاء على البعد الواقعي لتأريخ العراق السياسي الحديث، والكشف عن العناصر البنائية" (الخليل، 2016) متخذًا من رابعة العدوية رمزًا تاريخيًا صوفيًا لتجسيد معاناة بطلة الرواية (قبس)، ذلك التكنيك الذي اتخذه الروائي لبناء الأحداث الكبرى، والتي اتخذت من التاريخ منفذًا للتعبير عن قصة العشق بين بطل الرواية والفتاة "قبس"، والتي أشار لها الحوار الآتي:

"– برأيك يصير أدرس رابعة العدوية... يعني هي دينية؟!

صفن قليلًا... وراح يفرك جبهته، ومن ثم قال بشيء من التأمل:

– ليش لا.. ترهم.. إي والله ترهم شخصية دينية ,وصوفية معروفة.

وأضاف ضاحكًا:

– رابعة مثل الطماطة، ترهم على كلشي...

تمنيت أن أخبرها اللحظة بقراري، استحضرت وجهها الطافي على الضوء، وملامحها التي كانت تنطق بالغموض مع كلمات سؤالها لي بشيء من الاستنكار(كيف أنت بصراوي ولا تعرف رابعة العدوية؟)" (البيضاني، 2022), يرتبط النص ببنية حكائية مرتبطة بالتاريخ، فينطلق من التاريخ من أجل "مباغتة المستهلك واختراق المألوف وتجاوزه، فضلًا عن تأثيثه بتلاحق صوره ومشاهده القابضة

DOI: https://doi.org/10.47831/m7dgym15

على لحظة الانفعال، متغيرة الأمكنة باعتماد الجملة السردية التاريخية" (الخليل، ما يحتمله السرد ، 2017). فقد أطلت تسجيلية التاريخ من الصفحة الأولى، ويسترسل في سرد الأحداث، ولا سيما توثيق ما مرّ به الشعب العراقي أيام الحصار الاقتصادي والحرب العراقية الإيرانية: "بمحض الصدفة، ومن دون أي تخطيط، قررت التقديم على الدراسات العليا لنيل شهادة الماجستير. القرار كان مفاجئًا لي أنا نفسي، فكيف سيكون بالنسبة للآخرين! كل شيء جرى بمصادفة غير محسوبة، فقد أنهكني انتظار سيارة (التاتا) في ذلك المساء، مثل أغلب الأيام التي أعود فيها إلى البيت بعد التسكع في المسافة بين ساحة الميدان وساحة التحرير، عسى أن يصادفني عمل أتقوّى به على الحصار الاقتصادي الذي بدأ يدق في عظامي" (البيضاني، 2022)

والبيضاني معروف باهتمامه "بالطبقات المهمشة والمسحوقة والمعذبة، فيجد في تلك الشرائح النموذج الأمثل للظلم السياسي والاجتماعي. بل هو معني بالحفر في الوجع الإنساني، بلغة أقل ما يُقال عنها إنها لغة الغوص في أغوار المجتمع العراقي" (حسين، في موشور النقد (دراسات في قصص عبدالستار البيضاني)، 2020). كما أنه عرّج على إرث العراقيين في جذورهم التاريخية وتراثهم وأساطيرهم ورموزهم، فتوغّل السارد في سرد تناقضات الحياة الاجتماعية، متخذًا من السخرية سلاحًا نقديًا فعالًا وحميميًا لفهم المعنى وترسيخه، ومنها عراقيل القبول في الدراسات العليا في زمن نظام البعث، الذي احتل حقبة زمنية في تاريخ العراق: "عندما طلب مني موظف التسجيل جلب (الرعوية)، قال: من دونها لا يمكن قبولي في الدراسات العليا، مهما كانت درجتي عالية. – إنها الأوامر – كما ختم حديثه معي بشكل صارم. في البدء، لم أفهم ماذا يعني بـ(الرعوية)، ولماذا يطلبها مني، وأنا عراقي أصلي! أملك الجنسية وشهادة الجنسية، أنا ووالدي وأمي. الطريقة التي شرح لي فيها الموظف معنى الرعوية تشير إلى أنه غير مقتنع بما يقول (لكنها الأوامر)" (البيضاني، 2022), فالنص يُعبّر عن الواقع التسعيني لشعب عاش معاناته الجميع، ومنهم السارد، على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، الذي تكلمنا عن بعض جوانبه في الجزء الأول من هذا البحث. فقد استطاعت هذه الرواية "إماطة اللثام عن المسكوت عنه في المجتمع العراقي، والعمل على كشف الندوب الاجتماعية التي ظلّت لفترة من الزمن تتوارى خلف النصوص الأدبية، عبر توظيف الكثير من الموضوعات والقضايا التي عانت منها الفئات المهمشة" (حسين، في موشور النقد (دراسات في قصص عبدالستار البيضاني)، 2020), ومن هنا يبدأ الروائي باختيار الشخصية المرجعية، "التي يندرج تحت عباءتها الشخصيات التاريخية الأسطورية, هذه الشخصيات تحيل إلى معنى ممتلئ وثابت حددته ثقافة ما، كما أن قراءتها مرتبطة بدرجة استيعاب القارئ لهذه الثقافة" (هامون، 2016). إذا، نهضت الرواية بإيصال كل ما تصبو إليه من أهداف محورية حملتها الشخصيات (الاستذكارية)، فقد ساندت تلك الشخصيات (المرجعية) إلى تنظيم العمل ونسج شبكة من التداعيات والتذكير بالماضي عن طريق السرد.

وفي السرد التاريخي قد تنعكس حالة الشخصية على الفضاء الحاوي لها، فيكون هذا الفضاء طريقًا لاستذكار أماكن أخرى من خلال هواجس الشخصية الداخلية، وهذا ما تلمسناه في رواية دفوف رابعة العدوية، حيث بدا تأثير الفضاء واضحًا على شخصية البطلة (قبس) من خلال صراعها مع الحياة وقسوتها، أو البحث عن فرصة لإقامة حياة جديدة, فالبنية الإشارية لعتبة (العنوان) تشير إلى مناخ العشق والتعلّق الصوفي في زمن التكالب واللهث خلف لقمة البقاء، وتلك واحدة من صور التناقضات التي اشتغلت عليها الرواية، التي لم تكن متنًا صوفيًا، بل اتخذت من الإشارة إلى المعنى الصوفي إطارًا عامًا. لكن الرواية توغلت في الواقع التسعيني وأزماته وتمثلاته على المستوى الاقتصادي والإنساني, ولعل ما أراد الروائي إيصاله أن قصص الحب الحقيقية هي تلك التي تولد وسط التأزم والحروب، وأن الإنسان يتوهّج بعواطفه رغم رمادية الواقع، وتصبح النزعة الوجدانية وسيلة للخلاص والتسامي، وتنتج معانيَ أُخر مهمة، هي الانتصار على تردي الحياة، وإنقاذها من غياب المعنى الروحي لثنائية (الرجل والمرأة، الجسد والروح، الواقع والمثال). وبهذه الأجواء، يصبح الإنسان إزاء رحلة للانبعاث، ونبذ الرداءة، وتمجيد الأعماق المتوهجة المتضادة لتداعيات الضغط الخارجي المتمثل بتصحر الحياة واختزالها إلى المعنى الغرائزي المحض. ورغم هذه المحمولات، لم تسع الرواية إلى الهتاف، بقدر ما سعت إلى التأطير والتضمين، وتُستدل على أن الاستهلال والصفحات الأولى كانت تركز على استقطاب المتلقي لقصة حب جامحة، وأنها مجرد حكاية حب عنيفة. لكننا، مع التواتر السردي وتشظي أبعاد المتن الحكائي، نكتشف أن حكاية الحب هي رمز للخلاص من واقع مكتظ بالخراب والوجع: "قبل أن أسترسل، ألفت الانتباه إلى أن هذه الحالة لم تحدث قط في جميع مدونات التاريخ ومصنفات الآداب والفنون طوال التاريخ البشري، وهذه ليست مبالغة، فقد قرأنا وسمعنا في الواقع والخيال الكثير عن شعور إنسان بوجود كائن يعيش في رأسه، سواء كان من الجن أو من البشر، وبعضهم يطلق على الإنسان الذي يشغِل رأسه كائن آخر أنه (ممسوس) أو فيه مس من الجن أو عاشق ولهان، لكننا لم نسمع قط عن شخص يشعر أنه يعيش في رأس إنسان آخر دون شعور صاحب ذلك الرأس! هذه هي خلاصة

DOI: https://doi.org/10.47831/m7dgym15

القضية التي أبحث عن تفسير لها!" (البيضاني، 2022), لقد جاء الرمز هنا (التاريخ البشري) ليكون أكثر صدقًا والتصاقًا بمعادله الموضوعي، منتهجًا التعبير المعتمد على التداعي التلقائي للمفردات، والمبالغة في هذا التوصيف هو نوع من الإغراء السردي، واستقطاب الميل عند المتلقي، وإظهار التدفق الذاتي المفرط للتعامل مع البطلة (قبس)، المعشوقة الجميلة قلبًا وروحًا وجسدًا، وعازفة السطور، الذي توظيف في وقائعها قصة وسيرة الصوفية المعروفة (رابعة العدوية)، وهو تضمين إشاري ورمزي لإنتاج الرؤية والمعاني والأفكار المشتركة بين سيرة رابعة وسيرة (قبس)، التي حمل اسمها معنى التوهج رغم الوجع والعذاب الذي كابدته منذ طفولتها، من يتم وفقر وضياع، وهي مشتركات بينها وبين الشخصية التاريخية (رابعة العدوية), وهذا المدخل الفني (الرمزي) نتج عنه توظيف بنية ميتاسردية، استطاعت أن تسجل وتنقل سيرة حياة رابعة العدوية ومعاناتها، ليتحوّل البطل الباحث عن شهادة الماجستير إلى شاهد وراوٍ مشارك، وظل هذا المثلث الدرامي يفتح الكثير من الأفكار والوقفات والدلالات العميقة التي تؤسس لبنية متوازنة الخطوط بين الواقع المحتدم والمثال الأشراقي، وهذه الثنائيات بين قبس ورابعة جعلت البطل يسعى لنيل شهادة الماجستير عن سيرة الأخيرة، طمعًا أو وسيلة للوصول إلى قبس، فالرمز المثال هو الذي قاده إلى الواقع.

وبهذا، اشتغلت الرواية برموزها التاريخية على المفاهيم، وليس مجرد حشد شخصيات وحكاية حب عائمة، وتلك هي مآثرة الرواية لاستدعاء منطق دلالي يمثل الواقع ويخرج عليه. ويستطرد السارد في وصف سيرة وجع رابعة وتحولاتها من الفقر والكفاح إلى التصوف والغناء مع الذات الإلهية: "كيف تسنّى لهذه البنت أن تشتغل بدلًا من أبيها (معيبر)؟ حقيقة، أنا لم أسمع في التاريخ أن امرأة تعمل على نقل الناس في قارب، قارب من قوارب قديم الزمان، أتعرف ماذا يعني هذا؟... يعني بلا محركات ديزل، يعني تقوده بالمجاذيف. وأين؟ في أنهار البصرة التي هي في مدٍّ وجزر! يعني لا تحتاج القوة فقط، بل تحتاج القوة والمهارة! عليك أن تفسر هذا! اترك تفاصيل حياتها، فذلك لم يعد يعني شيئًا أمام هذه الأسئلة" (البيضاني، 2022), لقد وظفت الرواية الرمز التاريخي الذي جاء بمنحى ميتاسردي في نقل وقائع سردية من سيرة رابعة العدوية وتاريخ مدينة البصرة، والتوغّل في الحياة الشعبية في الميناء وغيره، وزُجَّ بهذه المساحات والمناخات في عمق الرواية، إلى جانب التوثيق ليوميات الحصار وتردي الواقع الإنساني وانهيار منظومة الحياة بكل أبعادها, وهذا ما جسدته شخصية الأستاذ عمار حينما يوحي البطل لنيل شهادة الماجستير في خطب وأقوال القائد، فهي أسرع وسيلة لنيل الشهادة العلمية، وهذا ما جسده الحوار الخارجي الذي نقله الروائي برمزية تكشف عن حقبة تلاشت، وضاع فيها كل القيم النبيلة، وانقلبت موازين الحياة في كل مجالاتها:

". ماذا قلت؟... تعال على واهسي..

. أستاذ ماكو واهس... وأخاف ما أدبرها.

أطلق ضحكة:

. أنت وافق والباقي عليّ.

. شنو تكتبلي الرسالة؟

. لا.. بالعكس، أنت مثقف وأفضل من الكثيرين الذين قدّموا وتم قبولهم.. ومع ذلك، سأعطيك سرًّا يجعلك تضمن الحصول على مقعد دراسي؟ أكو موضوعين إذا اختاريت واحد منهم غصبًا عليهم يمنحوك مقعدًا بالماجستير..

. شنو أستاذ يعني صارت كلاوات؟..!

. بابا، أنت ما عليك، أنت تريد ماجستير لولا؟..!

ابتسمت وقلت له مازحًا:

. أنت تريد آخذ ماجستير، مو أني.

. شوف خصم الحچي، خاف تجي (تاتا) ثانية.. أنت بس اختار لو خطابات صدام حسين، لو تختار موضوع يخص الدين.

. خطابات صدام، أو كما يسمونها "فكر القائد"، افتهمناها... لكن الدين ليش؟

. شنو.. أنت مدا تتابع الأمة مخبوصة بالحملة الإيمانية!" (البيضاني، 2022)

لقد جاءت الرموز التاريخية في رواية دفوف رابعة العدوية محمّلة بمداليل إيحائية وفكرية، تعامل الروائي معها من منظور الوعي بالحاضر والماضي، لبلد أنهكته حكوماته الجائرة، فجاءت النصوص السردية متدفقة بالدلالات العميقة الكامنة في أعماق ذاته.

DOI: https://doi.org/10.47831/m7dgym15

ثانياً : الرمز الاجتماعي

منذ العنوان تضعنا رواية (دفوف رابعة العدوية) في زخم الواقع العراقي المأساوي في ظل ثلاثة عقود من الحروب الدامية وتشظي الهويات غير القادرة على تحقيق طموحاتها في ظل عوامل ذاتية، وفردية، ومجتمعية. فدفوف رابعة العدوية هي "مرثية للإنسان والمدينة والنظام الاجتماعي، وتسعى لتحديد نقطة بدئية لاختلال التوازن، وتشوش الوعي، وتضارب الأهداف، وتناقض المسارات في المجتمع، حيث الأبطال الحقيقيون مجهولون، بلا أسماء، البطل وزوجته، وهم في حالة تشوش ذهني واضطراب يومي، أو يلتزمون الصمت" (راجي، 2022), ولم تعلن الرواية عن مضامينها بالتصريح المعلن عن القضايا الموضوعية التي استقت مادتها من الواقع، إنما أطرها الروائي بالرمز المرتبط بدلالة المجتمع العراقي نفسيًا وفكريًا، بالتأطير والتضمين إلى كل الأبعاد، وهذا ما نلمسه من قراءة الرواية، التي يوحي عنوانها والصفحات الأولى منها باستقطاب المتلقي لقصة حب جامحة، وأنها مجرد حكاية حب عنيف في إطار الجسد والروح، وقصة العشق الساخنة بين بطل الرواية والفتاة الجميلة قبس (عازفة السطور)، المتعالقة رمزيًا مع واقع الحصار الاقتصادي البغيض وإفرازاته، وهنا يبرز التنامي الروحي رغم مادية الواقع، فرابعة العدوية التي اتخذها الروائي عنوانًا لروايته، ما هي إلا رمزًا على انتصار الروح على الجسد، والتسامي على الملذات، ونبذ الرداءة، وقد استطاعت الرواية التوغل بسخريتها الرامزة إلى تناقض الحياة الاجتماعية، واستعمال السخرية كسلاح نقدي فعّال، عندما رسخها في صميم النص: "لم أفهم في البدء ماذا يعني بـ(الرعوية)، ولماذا يطلبها مني وأنا عراقي أصلي، أملك الجنسية وشهادة الجنسية أنا ووالدي وأمي – الطريقة التي شرح لي فيها الموظف معنى الرعوية تشير إلى أنه غير مقتنع بما يقول (لكنها الأوامر)، وكان يضغط الحروف ويمطها بطريقة تشي بالاستخفاف والسخرية (ألا يعجبك أن تعرف أين كانوا أجدادك قبل تأسيس الدولة العراقية؟ يجوز يطلع جدك العاشر سلطان عثماني)" (البيضاني، 2022), نقل لنا الروائي في أسلوب ساخر ممتع، جاء ضمن تداعيات الرموز في توضيح القيمة الموضوعية التي جسدها (لكنها الأوامر)، فنجد البطل، وهو يحمل أوراق التقديم لنيل شهادة الماجستير، فيصطدم بهذه العراقيل والمطالب الورقية (جلب الرعوية)، وكأن الإنسان فقد صفة المواطنة، وتحول إلى كائن مشكوك به، وبنسبه ووجوده. وتفرد الرواية نصوصًا واسعة لتجسيد وتصوير محنة الروتين الحكومي وصورة الدولة المتوجسة، مما يضطر البطل للسفر إلى البصرة ولقاء شخصيات ووجهاء كثيرين، منهم (عبيد الخريطلي)، للتأكد والنبش في التاريخ وصحة النسب والمولد والنشأة لأبيه وأجداده، لتستغرق هذه الرحلة عناء كبيرًا. وبهذا استطاع البيضاني، من خلال رمز (الرعوية)، تصوير تضخم البعد التسلطي للدولة، وتحويل الإنسان إلى مجرد رقم، ومجموعة من الأوراق: "حاولت أن أرمم هذا الانكسار في نفسي بتذكري أن أبي ذكر لي اسم الصديق الوحيد الذي يتذكر اسمه من أصدقاء جدي، وهو (عبيد الخريطلي)، لكن مهمتي ستكون شاقة جدًا في العثور عليه، لسبب بسيط جدًا، وهو عدم وجود أقارب لي في البصرة" (البيضاني، 2022), رسم الروائي بالكلمات واقع المجتمع العراقي بدقة، في كل تداعياته المأساوية، فجاءت رموزه الاجتماعية مغلفة في الوصف أو الحوار، مما عزز المتن الحكائي للرواية برمتها، ولعل قصة كفاح الأم (أم قبس) تمثل بؤرة سردية موازية لقصة العلاقة بين البطل وقبس، التي نقلت له كل تفاصيل تلك المحنة التي عانتها الأم، حتى أنها فكرت بالانتحار، لكنها كانت تفكر بمصير بناتها الصغيرات. وما قصة أم قبس إلا لنساء كثيرات، دفعتهن الحاجة لمثل هذه الزواجات، ولاسيما الأرامل اللاتي لا يملكن معيلًا، ولا دولة، ولا قوانين تضمن العيش الكريم لهن: "وافقت أمي على أول طلب زواج تقدم به رجل من معارف خالي، في مظهره هيبة ووقار وأناقة، يعمل في تجارة التحفيات. أتذكر أنني في ذلك العمر جذبني لون المنديل الذي يضعه في جيب صدر سترته. وافقت أمي من دون أن نسأل عن طبيعة علاقته بخالي، وكل الذي سمعته من حديث خالي مع أمي أنه مطلق زوجته" (البيضاني، 2022).

لقد بدت الرواية وفق هذا المسعى، إلى صيغة سردية تعددت فيها الأصوات لتقديم الشخصيات ومعاناتها وصراعها مع الواقع، فشخصية الرجل الذي تزوجته أم قبس بعد ذلك، وتحت ضغط الحاجة، فإنه نموذج للشخصية السلبية التي مثلت علامة من علامات الانتكاس الاجتماعي في ظل الحصار، الذي أفرز هذه النماذج السلبية المتهالكة: "علمنا أن زوج أمي، الذي جذبتنا أناقته وأريحيته، قد خسر كل شيء في سباقات الخير (الريسز)، وأن وضعه المالي لم يعد يسمح له بالشرب في الحانات والملاهي الليلية كالسابق، وعلى أمي أن تعوض له هذا الفقدان، وعليها أن تتحمل كل ضغوطات الحال الجديد... (أووف) قالتها بحرقة، وهي تدير وجهها عني إلى زجاج النافذة الجانبية "(البيضاني، 2022) فشخصية الزوج كانت شخصية تعاني الإدمان والفشل، وهي إشارة إلى النمط الذي ساد في الحصار، بعد أن تفكك الواقع وسادت ملامح الضعف الاجتماعي بسبب الضغوط الاقتصادية، وموت الحياة، والسير بها باتجاه المجهول، وتأتي ذروة الأحداث بأن تزداد سلبية الزوج، وتتفاقم الأحداث بطرد الأولاد إلى الشارع، واستسلام الأم للواقع المأساوي في

DOI: https://doi.org/10.47831/m7dgym15

ظل الحصار الجائر، ليصف الروائي تشتت وضياع بطلة الرواية، قبس، التي وجدت نفسها تواجه الحياة، وهي تحمل مسؤولية أخواتها في بيئة ومجتمع يخلو من الأمان والاستقرار لتعاني وحيدة منكسرة، جسدها الروائي في مشهد درامي: "أغلق باب الغرفة على أمي، ووقف وسط الحوش، قريبًا من باب غرفتنا، ونادى علينا بنبرة آمرة زاجرة، بمغادرة البيت فورًا ومن دون تأخير. ارتجفنا من الذعر، ولم نجد ما نلوذ به، فقد حال بيننا وبين أمنا المحبوسة في غرفتها، ولا نعلم أكانت تسمعنا، وهو يطلب منا المغادرة، أم لا؟ ولشدة ما يجرحني تذكر هذا الموقف، أنني حتى الآن لم أعلّم أمي عما جرى، ولم أسألها فيما إذا كانت تعلم بتصرفه معنا أم لا! بقينا في الزقاق بعض الوقت، عسى أن تخرج لنا أمي، أو هو يخرج ويعيدنا، كان يملأنا الذعر والجوع والانكسار، فلم يبقَ أمامي سوى أن أمسك بأيدي أخواتي، وأعبر جسر الأحرار مشيًا، لكي أصل من هناك إلى كرادة مريم... بيت خالتي هو الخيار الوحيد المتبقي أمامي " (البيضاني، 2022).

لقد جاءت رواية دفوف رابعة العدوية محاكاةً للواقع بكل تفاصيله، فسلطت الضوء على معاناته، فتحدثت عن أوضاع حقيقية ومعاناة شعب بأكمله، فجاءت الرواية محمّلة بالكشف عنها في ظل الحروب والحصار، الذي ترك أضراره على المجتمع، فكانت تلك التفاصيل هي المحور الأساسي "لتوليد الأحداث وتحريكها، بغية تطويرها ونموها في النص السردي، بفعالية التأثر والتأثير. وقد تتغير مسيرة الأحداث تماشيًا مع تحول أو تغيير مفاجئ للشخصية، فهي تمثل جزءًا أو مكونًا ضروريًا لتلاحم السرد "(بجرادي، 1990), ومن النصوص السردية التي جسدت قيمة كل رموز الانحلال الأخلاقي وتشظي القيم الاجتماعية، وانعكاساتها على الأم (الزوجة): "كانت كسرة كبيرة لأمي، عندما عرفنا أن زوجها يشرب العرق في غرفة نومها، وعليها أن تقوم بدور نادل والغانية، وتحمل كل حالات السكر، حتى انكسر كل شيء وتهدم، عندما علمنا أن زوج أمي، الذي جذبتنا أناقته وأريحيته، قد خسر كل شيء في سباقات الخير (الريسز)، وأن وضعه المالي لم يعد يسمح له بالشرب في الحانات والملاهي الليلية كالسابق، وعلى أمي أن تعوض له هذا الفقدان، وعليها أن تتحمل كل ضغوطات الحال الجديد" (البيضاني، 2022), لقد انتقى السارد مرجعيات المجتمع لصوغ روايته، موظفًا جل مهاراته الكتابية لتصب في القضية المطروحة، ورسمها بصورة سردية تأخذ ألوانها من معاناة شعب بأكمله في ظل الواقع المأزوم والمتشظي، فعلى الرغم من تركيز الرواية على قصة العشق بين البطل وقبس، إلا أنها صوّرت الواقع بكل مراحله الصعبة في ظل الحصار والحروب، فعرضت جوانب مهمة لشرائح المجتمع البارزة، ومنها الأستاذ الجامعي (عمار عبد الجليل)، وحكاية أم قبي بعد موت زوجها، وما عانته من أطماع وغوايات، ولا سيما وأنها امرأة جميلة: "نعم، إنها أمي، وهذه هي المشكلة، عندما يكون الجمال نقمة! فقد طلب عمي، الذي تولى الإشراف على المطاحن وعلى أملاكنا، الزواج من أمي بعد أشهر قليلة من وفاة أبي، بحجة المحافظة على بنات أخيه من الضياع. كان غليظ الطبع، غير محبوب، وبملامح تبعث على الكراهية في نفس كل من يراه، على عكس ملامح أبي السمحة. أنا أحتفظ بصورة لأبي، يلبس العمامة، سأريها لك في يوم ما. ولم توافق أمي، بحجة أنه لم يمضِ وقت طويل على وفاة أبي، لكنها في الحقيقة لم تقتنع به" (البيضاني، 2022), قد خلق البيضاني شخصياته برمزية ساعدت على "تقديم شخصيات متخيلة تتماشى مع الشخوص الواقعية" (الأشلم، 2006), إذ استطاع أن يبني ملامح الشخصية الثانوية (الأم) وتحديد معاناتها بوصفها رمزًا لمعظم الأمهات مع أزواجهن، فأظهر السارد كل ملامح هذا الزوج، وبكل تفصيلاتها، ليمنح المتلقي الفهم العميق لها عبر مستوعبات رموزها، ولعل أهمها ازدواجية شخصية الرجل، ولاسيما (الزوج) العراقي: "وافقت أمي على أول طلب زواج تقدم به رجل من معارف خالي، في مظهره هيبة ووقار وأناقة، يعمل في تجارة التحفيات. أتذكر أنني في ذلك العمر جذبني لون المنديل الذي يضعه في جيب صدر سترته. وافقت أمي من دون أن نسأل عن طبيعة علاقته بخالي، وكل الذي سمعته من حديث خالي مع أمي، أنه مطلق زوجته، فضلًا عن جاذبية مظهره، بدا لنا كريمًا عندما أقسم متعهّدًا بتبنينا أنا وأخواتي، وسيعتبرنا بناته حتى إكمال دراستنا. وفعلاً، دخلت أنا المدرسة، وفي سنة لاحقة تبعتني أختي فيحاء، فقد أسكننا في بيت خاص قرب (ساحة الواثق)" (البيضاني، 2022), كما رصد الروائي بإبداع وتفصيلات، كل ما يتعلق بالمجتمع، ولا سيما وصف كفاح الأم، التي تمثل بؤرة سردية موازية لقصة البطلة (قبس)، فنقل السارد كل تفاصيل محنة الأم، حتى وصل بها الأمر إلى التفكير بالانتحار، لولا الخوف على مصير بناتها: "أسوأ ما في طفولتي هي تلك اللحظة التي أرادت فيها أمي أن تلقي بنفسها في النهر. كنا معها نحن البنات الأربع، فيما بعد، وعندما كبرت، أخبرتني أن الذي أخرها عن الانتحار، هو أنها لم تحسم أمرها، هل تلقي بنفسها في النهر وحدها، أم تغرقنا معها؟!.. وفي لحظة خاطفة، كما قالت لي فيما بعد، تخيلت ما الذي يحدث لبناتي من بعدي مع هذا العم اللئيم "(البيضاني، 2022), يتضح من النص أن السارد بدا معزّزًا للمتن الحكائي للرواية بأسرها، بتوظيف الاستطراد وخلق عالم سردي موازٍ للواقع، بتقنية

DOI: https://doi.org/10.47831/m7dgym15

الاسترجاع لأحداث الماضي، والتي عزّزها تعدد الأصوات التي نهض بها الحوار والوصف، لتجسيد معالم وصراع الشخصيات مع الواقع, ومن تلك الشخصيات، نجد شخصية الرجل الذي تزوجته (أم قبس) تحت ضغط الحاجة، فإنه نموذج للشخصية السلبية التي مثّلت علاقة من علاقات الانتكاس الاجتماعي، في ظل الحصار الذي أفرز هذه النماذج السلبية المتهالكة؛ تلك الشخصية التي كانت تعاني الإدمان والفشل، وهي إشارة إلى النمط الذي ساد في الحصار، بعد أن تفكك الواقع وسادت ملامح الضعف الاجتماعي، بسبب الضغوط الاقتصادية، وموت الحياة، والسير باتجاه المجهول.

ويمعن الروائي في تسليط الضوء وتعرية الواقع الاجتماعي، ليومئ إلى انقلاب الموازين القيمية، ومنها انعدام قيمة الشهادة: "صحيح رابعة فقيرة زاهدة... لكنها بعد ذلك تخطبها الملوك والأمراء والأثرياء... وعازفة السطور لم تولد ثرية.. الدف الذي كانت تضرب عليه رابعة فتح لها طرق السماوات والأرض... والسنطور الذي ضربت عليه قبس، أيضًا، فتح لها الطرقات إلى كل الدنيا.." (البيضاني، 2022), ليتوضح هذا المعنى جليًّا في قوله: "لم تكمل دراستها الجامعية.. قيل أنهم أخرجوها من ملجأ الأيتام مقابل أن تتعلم العزف على السنطور وتتوظف في الفرقة الموسيقية، لأن عمل النساء في الفرقة الموسيقية والأغاني عمل غير محمود السمعة اجتماعيًا.." (البيضاني، 2022), كما حمل رمزه الاجتماعي أبعادًا توثيقية ليوميات الحصار، وتردي الواقع الإنساني، وانهيار منظومة الحياة بكل تفاصيلها، مما يبعث السخرية من هذه الأقدار التي طالت أعظم شريحة في المجتمع، وهو الأستاذ الجامعي: "وجدت الدكتور عمار عبد الجليل، الأستاذ الذي درسني في المرحلة الجامعية الأولية، كان يحتضن حقيبته ويجلس على المصطبة متكورًا على نفسه. حيّيته بصوت لا يخلو من الفرح، وكدت أحتضنه وأقبله، لكنه لم ينهض للرد على سلامي، فقد اكتفى بضم الحقيبة إلى صدره والتحرك جانبًا، مشيرًا إلي بالجلوس، بعد أن صافحني وهو ينحت ابتسامة جافة على وجهه الذابل... تزاحمت الأسئلة على لساني، ووجدتها جميعها أسئلة محرجة، وربما جارحة، فكتمت جميع أسئلتي، بما فيها سؤالي عن سيارته التي كان يحرص أن تكون من أحدث الموديلات، لكنه يبدو أنه فهم ما يدور في ذهني، فبادرني بالقول: انتهى عمر إطارات السيارة، وتركتها في البيت واقفة على البلوك "(البيضاني، 2022), ولعل هذا يشير إلى رغبة الراوي في تجسيد ما رآه حقيقة، كحقيقة واقع القارئ، ولاسيما في اختياره الحوار العامي، وبالمفردات الشعبية التي وثقت تلك المرحلة الصعبة من تاريخ المجتمع العراقي، تلك المرحلة التي سلبت الإنسان وجوده، وحياته، وأحلامه، وقادته إلى مصير مجهول.

إن انتشار قصة رابعة العدوية والاستفادة من سيرتها، وإن بدت كملمح ميتاسردي، لكنها لا تخلو من إشارة للعودة إلى الينابيع الحقيقية لنماذج تحدت الواقع، واستطاعت أن تغير الذات السيكولوجية للانتصار على الواقع. و(رابعة وقبس والبطل)، الذين سعوا إلى تغيير الذات، ولعبة التحدي والتوهج فيها، إنما هو انتصار على الواقع ومن ثم تغييره. فالرمز الاجتماعي يخبرنا، في كل أو معظم نماذجه، بأن وعي الذات هو المؤسس الحقيقي للفعل الإنساني المتعالي، والذي يكمن بالتمسك بالينابيع الإنسانية والجمالية. وكل الغيوم ستزول، سواء عتمة السلطة أم عتمة المرحلة التسعينية المقيتة، فالإنسان هو المحور الأساسي في انكساراته، وسقوطه، وإحباطاته، وهو المعادل الموضوعي لبقاء القيم النبيلة الرفيعة: قيم الجمال، والفن، والسيرة الاستثنائية. هو الذي يشكل البؤرة المضادة لما جلبته الوقائع المرتبطة بإفرازات التاريخ، وتدني الأداء السلطوي، وشيوع السلوك الغرائزي. وهذا ما توجته الرواية بالنهاية الموحية، التي عُبر عنها بمشهد العناق بين البطل وقبس، وهما يركلان الواقع ويتوجهان بحثًا عن سيرة رابعة العدوية، وعن المعرفة، ولم ينتبها إلى الفشل العابر – بعدم قبول البطل في الدراسات –، فإن الفعل الإنساني المؤثر يبدأ بفكرة التماهي مع المطلق، الذي يسعى لتزيين الواقع، وتعد رواية البيضاني سمفونية عزفت صورة مشعة، لتُفصح عن المناخ الرمادي، وتداعيات الانكسار، والتصحر، والبلادة المؤدلجة.

وفي الختام نرى أن رواية (دفوف رابعة العدوية) جاءت محمّلة برموز ذات أبعاد سياسية واجتماعية، تمتلئ بالثورة على الظلم والاستبداد، وقسوة الواقع العراقي في زمن الحصار الجائر، فتناولها الروائي من منظور الوعي بالحاضر، وإدراك الواقع الاجتماعي والسياسي المتحجّر، ولم تسعَ الرواية إلى الهتاف بقدر ما سعت إلى التأطير والتضمين، وما حكاية الحب الجامح إلا رمز للخلاص من حياة مكتظة بالخراب والوجع. كما أن البحث عن سيرة رابعة العدوية، الرمز الصوفي الخالد، والمعادل الموضوعي لنقاء القيم الرفيعة (قيم الجمال، والفن، والسيرة الاستثنائية) عبر التاريخ، جاء بركل الواقع والغرائز، والتماهي مع المطلق، الذي يؤسس لخيارات فضح المناخ الرمادي، وتعري تداعيات التصحر والانكسار، والمبالغة في هذا التوصيف هي نوع من الإغراء السردي، واستقطاب

DOI: https://doi.org/10.47831/m7dgym15

الميل عند المتلقي، وإظهار التدفق الذاتي المفرط في التعامل مع الوقائع التي تعرض لها بطل الرواية، عبر رحلته المضنية، والمتوهجة بالعشق والوجع، والبحث عن الذات.

المراجع

جلال الخياط. (1975). *الشعر والزمن*. بغداد: منشورات وزارة الاعلام.

حسن الأشلم. (2006). *الشخصية الروائية عند خليفة حسن مصطفى*. ليبا, طرابلس: مجلس الثقافة العامة.

حسين بجرادي. (1990). *بنية الشكل الروائي*. لبنان, بيروت: المركز الثقافي العربي.

رباب هاشم حسين. (2020). *في موشور النقد (دراسات في قصص عبدالستار البيضاني)*. سوريا, دمشق: تموز ديموزي.

ساطع راجي. (13 آب, 2022). *جريدة الصباح*، الصفحة الثقافية, العدد:5469.

سمير الخليل. (2016). *مقتربات السرد الروائي*. بغداد: دار روافد للطباعة والنشر.

سمير الخليل. (2017). *ما يحتمله السرد* . سوريا, دمشق: دار أمل الجديد للطباعة والنشر والتوزيع.

عبدالستار البيضاني. (2022). *دفوف رابعة العدوية*. بغداد: منشورات الأتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.

فيلب هامون. (2016). *سيمولوجيا الشخصيات الروائية*. (سعيد بعكراد، المترجمون) سوريا: دار الحوار للطباعة والنشر.

References

Al-Ashlam, H. (2006). *The fictional character in the works of Khalifa Hassan Mustafa*. Libya, Tripoli: General Authority for Culture.

Al-Baydani, A. (2022). *The tambourines of Rabi'a Al-Adawiyya*. Baghdad: Publications of the General Union of Writers and Authors in Iraq.

Al-Khalil, S. (2016). *Approaches to narrative fiction*. Baghdad: Rawafid Publishing House.

Al-Khalil, S. (2017). *What narrative can bear*. Syria, Damascus: Amal Al-Jadeed Publishing and Distribution.

Bajradi, H. (1990). *The structure of the novelistic form*. Lebanon, Beirut: Arab Cultural Center.

Hamon, P. (2016). *Semiology of fictional characters* (S. Ba'karad, Trans.). Syria: Al-Hiwar Publishing House.

Hussein, R. H. (2020). *Through the prism of criticism: Studies in the stories of Abdul-Sattar Al-Baydani*. Syria, Damascus: Tammuz Dimoozi.

Khayyat, J. (1975). *Poetry and time*. Baghdad: Ministry of Information Publications.

Raji, S. (2022, August 13). *Al-Sabah Newspaper*, Cultural Section, Issue No. 5469.

DOI: https://doi.org/10.47831/m7dgym15